

## الفضل الخامس

### المشاكل الجنسية في المدرسة

لا تتوقف شخصية المدرسة على المستوى الخلقى لتلاميذها  
فحسب. ولكنها تتوقف أولاً وقبل كل شيء على المستوى الخلقى  
لناظر الدرس ومدرسيها وعلى مدى تأثيرهم الشخصي في التلاميذ.

#### أهمية الجو المدرسي:

قد تفرغ المدرسة جهودها في سبيل عرض حقائق الجنس البيولوجية على تلاميذها، وقد تستنفد كافة الوسائل في الدروس ونواحي النشاط الحر حتى تربط هذه الحقائق بحياة التلاميذ وتفسرها لهم في ضوء الحياة الاجتماعية، ولكنها مهما بذلت في هذا السبيل لا تكون قد حققت رسالة التربية الجنسية بأجمعها، إذ أن الهدف الأساسي للتربية الجنسية لا يقتصر على استعراض الحقائق وإنما يتعدى ذلك إلى التأثير في اتجاهات الأفراد وسلوكهم وذلك وأيم الحق هو ما يجعل مهمة المربي شاقة عسيرة.

غير أن صعوبة المهمة لا يصح أن تقف حائلاً بيننا وبين القيام بها على خير وجه. ولا ريب في أن كثيراً من المعلمين قد لمسوا هذه المشكلة وآمنوا بوجودها في المدرسة بعد أن كانوا لوجودها منكرين. فقد قال قائلهم «عندما بدأت مهنة التدريس منذ نيف وخمسة عشر عاماً خلقت، لم أكن أتصور وجود أية مشكلة جنسية عند تلاميذ مدرستي. وكنت أعتقد أن هذه المشكلة لو وجدت فإنها لا تكون من الخطورة أو الأهمية بحيث تشغل بال المعلم واهتمامه. ولكنني بدأت أومن بوجودها وبضرورة الاهتمام بحلها بعد أن عاشرت التلاميذ واستمعت إلى أحاديثهم واطلعت على الكتب التي يقرأونها عندما يخلو لهم الجو، وبعد أن لاحظت ألوان انفعالاتهم عند رؤية الجسد البشري العاري والصور التي تمثله».

كيف السبيل إلى حل هذه المشكلة؟ قد يستطيع المدرس الخبير أن يمدنا باقتراحات طيبة محدودة عن أفضل الظروف وخير الطرق لتوصيل المعلومات الجنسية إلى التلاميذ، ولكننا لسنا على يقين من أن في وسعه أن يمدنا بمثل هذه الاقتراحات عن كيفية تشجيع هؤلاء التلاميذ على أن يثقوا من الجنس موقفاً سليماً وأن يسلكوا نحوه سلوكاً أيضاً. فلنحاول من جانبنا أن نبين كيفية الوصول إلى هذا الهدف، ونحن نجزم منذ البداية بأن هناك اتفاقاً في الرأي بخصوص الحقائق الجنسية من الناحية العلمية، ولكننا في شك عما إذا كان هناك اتفاق في الرأي على تحديد الاتجاه العقلي أو السلوك الخلقى المثالي نحو الجنس.

ويزيد هذا الشك ويشد الاختلاف عندما نكون بصدد الكلام عن البالغين ولذا فإن مناقشة الاتجاه العقلي نحو الجنس وسلوك البالغين نحوه يحتاج منا تفكيراً جدياً، بينما تضعف أسباب هذا الشك وتقوى أواصر الاتفاق لحسن الحظ عندما نتكلم عن نوع الاتجاه المرغوب فى وجوده عند أطفال المدارس وعن نوع السلوك الذى يمكن أن ننتظره منهم فيما يتعلق بالأمر الجنسية، وإن كان هذا الاتفاق ليس تاماً بالطبع. فبينما يرجو بعض الآباء أن يكون أطفالهم على غرار الملائكة الأطهار إذا ببعض المعلمين يعتقد أن هؤلاء الأطفال ليسوا سوى أبالسة صغار. وبين رجاء الآباء الباسم وهذا الحكم الصارم توجد طائفة ثالثة تدبرت الأمر فى هدوء ورزانة ووصلت فيه إلى نوع من الاتفاق.

ومحور الاتفاق قولهم بأهمية «الجو الدرسي» كمؤثر فى سلوك تلاميذها. حقاً لقد تغالى بعضهم فى تفسير معنى «الجو» حتى انطوت تحته معان ليست منه فى شىء مما حدا بكثيرين ممن لمسا تلك المغالاة إلى رفض تلك الفكرة. ورغم ذلك فتأثير جو المدرسة فى تلاميذها حقيقة لا مراء فيها، حقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، حقيقة يدركها كل من تحدث مثلاً مع أفراد الفرق الرياضية إذا تجمع أفرادها فى حلبة المباراة، فقد نجد بين هذه الفرق فريقين من مدرستين متشابهتين من حيث الموقع الجغرافى والبيئة الاجتماعية، ثم نتبين بين أفراد الفريقين من هو بذىء اللسان خشن التصرف بينما لا يصدر عن أفراد الفريق الآخر إلا ما ينتظر عادة من شخص أصيب فى ساقه مثلاً أو ما ينتظر حدوثه عادة من فريق ناهض من القتيان.

وجملة القول فإن المدرسة بوتقة لصهر الخلق، والتربية الجنسية عنصر هام من العناصر التى تموج بها هذه البوتقة، حتى إذا ما طلب منك فى يوم من الأيام وضع خطة مفصلة للتربية الجنسية أمكنك أن تقول «لسوف تجد هذه الخطة فى ثنايا تدريب الخلق». والواضح أن حياة المجتمع المتحضر تستلزم تنظيم الرغبات البدائية، ومن بينها الرغبات الجنسية، وكلما كان خلق الفرد قوياً متيناً كلما أمكنه تنظيم هذه الرغبات تنظيمًا قوياً. ورغم ما قد يعترض هذا التنظيم من عقبات فسوف نحاول الإشارة إلى طريق معالجة بعض المشكلات الجنسية المحددة التى قد تنشأ فى ظروف معينة فى كل مدرسة من المدارس.

وقبل أن نبدأ هذا البحث نشير عرضاً إلى أن ما نعتبره من «مظاهر النشاط الجنسى» للطفل قبل المراهقة ليس فى أغلب الأحوال نشاطاً جنسياً فى أساسه على الإطلاق. وضروب النشاط التى من هذا النوع قد تكون موجهة فعلاً إلى موضوع جنسى، ومع ذلك فقد لا يكون الدافع إليها فى كل حالة اهتماماً جنسياً مقصوداً. ولذا يجب على الكبار أن يتوخوا الحرص والحذر ولا ينسبوا إلى الطفل وجود ذلك الشعور الذى كان يدفعهم حتماً فى مثل تلك الظروف إلى مثل هذا النشاط. ولكن سواء اتجه لعب الأطفال إلى الناحية الجنسية بمحض الصدفة أو كان الدافع

إليه جنسياً مقصوداً فواقع الأمر أن معظم الأطفال لا يضارون نتيجة لذلك. ورغم ما سبق فعلينا أن ننشئ الأطفال على احترام مقاييس معينة للسلوك الاجتماعي، وعلى ذلك ينبغي علينا ألا نطلق العنان لألعابهم بذات الطابع الجنسي. ليس معنى ذلك نكبت اهتمامهم الحقيقي بالجنس أو نؤنبهم على هذا اللعب فنبالغ في ما قد يكون لديهم من اهتمام جنسى محدود، وإنما نستطيع أن نحدد من هذا اللعب الجنسي إذا وفرنا لهم نشاطاً آخر يشغلهم ويستحوذ على اهتمامهم.

### المذكرات الجنسية:

ويسأل بعض المعلمين أحياناً عن الكيفية التي يعالجون بها «مشكلة التلاميذ الذين يتداولون المذكرات ذات الألفاظ البذيئة»، والجواب عن هذا السؤال أننا نشعر بأن أساس هذه المشكلة في الغالب ليس سوى مشكلة التظاهر بالحشمة من جانب المعلم أكثر من أن تكون مشكلة إتيان فاحشة من جانب التلميذ. فغالباً ما تكون هذه المذكرات فجة في ألفاظها ولكنها بريئة في مرماها إلى حد كبير. وإذا كنا نفعل من جانبنا ما يشعر الأطفال بأننا نحيط موضوع الجنس بسياج من السرية والغموض، فهل ثمة ما يدعو إلى العجب إذا عمد هؤلاء الأطفال إلى تبادل المذكرات السرية في هذا الموضوع؟! إن تقصيرنا هو الذى أدى إلى خلق هذه المشكلة، ولذا ينبغي علينا أن نكرس بعض الوقت للتدبر ما وقعنا فيه من أخطاء بإهمالنا تنوير الطفل من هذه الناحية، بدلاً من أن نتحسس ما يختزنه من أفكار ونحن نرتعد فرقاً وإشفاقاً. وقد دلت التجارب التي أجريت في بعض المدارس على أننا كلما بكرنا بتعليم الطفل حقائق الجنس كلما قل تداول المذكرات الجنسية بين التلاميذ. أما إذا عالجتنا هذا الأمر باعتباره دليلاً على فساد متأصل في نفس التلميذ فإننا نكون قد تنكبنا السبيل في الوصول إلى عصب المشكلة ومحورها.

وقد يحدث في أثناء الدرس أن يلحظ المدرس بعض الرسوم الكاريكاتورية ذات المغزى الجنسي في طريقها السرى تحت الأدراج وهي تنتقل من تلميذ إلى آخر فيصدرها ثم يلقى عليها نظرة استنكار يثنيها بالعقاب الصارم الزاجر، ورغم هذا فقد يفتن بعض التلاميذ إلى أن نفس قصاصة الورق التي ضبطها المدرس سوف تكون موضعاً للتفككة بين المدرسين وسوف تثير عاصفة من الضحك بينهم عندما تحتويهم غرفتهم في فترة الاستراحة. فلكى نتجنب رذيلة الرياء والنفاق ينبغي علينا ألا نطالب تلاميذنا بسلوك جدى أكثر من السلوك الذى نقبله بالنسبة لأنفسنا. وإذا اعتقدنا أننا نخطئ إذ نمزح مزاحاً بينه وبين الجنس علاقة ما، فلنتخذ من مصادرة تلك المذكرات الجنسية فرصة مواتية لتربية التلاميذ من الناحية الجنسية لا بعقابهم وإنما بشرح وجهة نظرنا لهم. أما إذا كنا نشعر بأن ثمة مظاهر معينة للجنس والسلوك الجنسي تدعو إلى الضحك حقاً وأن الجنس يمكن أن يكون مجالاً للفكاهة فى بعض

الأحيان، فحرى بنا ألا نصدّق النفاق والتزمت وعلينا في هذه الحالة أن نفرق بين الضحك الصادر عن القلب وبين الابتسامة الصفراء الخبيثة، وبين شيء مرح تصادف أن كانت له علاقة بالجنس وبين شيء وضع خسيس في جوهره. ويتمشى مع هذا المبدأ قول أحد رجال التربية المشهورين «ليس من الخطأ أن تمزح مزاحاً له علاقة بالناحية الجنسية. أما أن تجعل الجنس موضعاً للمزاح والسخرية فإثم لا يجوز للفرد أن يقترفه بأية حال من الأحوال».

ونحن لو أخلصنا في حكمنا على المذكرات المضبوطة فإننا لا نجد في كثير منها ما يستوجب المؤاخظة، فلماذا نجأر إذن بالشكوى تظاهراً منا بالتقوى؟ أما إذا كانت هذه المذكرات بحيث تصور اتجاهات فكرياً خبيثاً عند تلميذ معين فربما يكون من الأفضل ألا نعلق عليها تعليقا مباشراً، وخير من ذلك أن نتحدث مع أصحابها من التلاميذ حديثاً خاصاً، على أن يكون مجرد حديث عابر لا وعظ مقصود. وقد لا ينتج هذا الحديث النتيجة المرجوة في حال لأن محادثة دقائق معدودة قد لا تصلح بسرعة ما أفسدته التربية الخاطئة في سنوات عديدة، وليس في ذلك ما يدعوننا إلى العجب أو إلى اليأس والقنوط.

ويلاحظ أن المذكرات الجنسية المتداولة بين التلاميذ تكون في العادة مجرد نسخ معدلة عن الأصل، كما تكون في بعض الأحيان من تأليف التلاميذ أنفسهم. وكثيراً ما تتضمن أشعاراً سقيمة أو قصصاً بذيئة لا تمت إلى الفن بصلة وفيها أبلغ دليل على انحراف عقلية صاحبها، لذلك فهي لا تعتمد على الناحية الفنية في جذب القراء وإنما تغريهم عن طريق ما فيها من الفحش السافر. وإذا راود الأمل نفوسنا في إصلاح مثل هذه النفوس السقيمة بسهولة كنا مبالغين، إذ يلزم الاستعانة بالطبيب النفساني في الحالات المتطرفة، أما في الحالات الأخرى فعلينا أن نثق بأثر التربية المدرسية الجيدة إذا دعمه التأثير الطيب للمنزل الطيب. ورب قائل يقول «لقد كنا ننتظر حلاً خيراً من هذا» وردنا عليه يتلخص في أن المدرس الذى يتوقع أن تأتى التربية الجنسية بالمعجزات ويأمل في أن تتمكن المدرسة من تصحيح سائر الآثار السيئة لمجتمع ردىء التنظيم إنما هو في الواقع فريسة أوهام قاسية. والحق أن تبين حدود ما يمكن أن يتم في المدرسة وتركيز الجهد في سبيل الوصول إلى أبعد ما يمكن الوصول إليه من نتائج في داخل هذه الحدود يعتبر أكثر تمشياً مع الواقع وأجدد بأن يؤدي مع الزمن إلى نتائج قيمة. ومهما كان الأمر فإن ذوى العقول المنحرفة قلة شاذة لا يقاس عليها.

أما معظم الأطفال الذين ينتجون بعض الكتابات الأدبية ذات الطابع الجنسي فلا يندمجون في الموضوع إلا مجرد اندماج وقتى حتى إذا تخطوا هذا الدور ساروا في نموه العادى. فما الذى يدفع الأطفال إلى مثل ذلك الإنتاج؟ يلاحظ عادة أن كل ممنوع مرغوب، ولذا فإن المجتمع الذى يحرم على الأطفال مناقشة الأمور الجنسية بطريقة علنية يغرى هؤلاء الأطفال على أن يطنوا هذه المنطقة المحرمة فيتطلعون خلف الأسوار بغية الوصول إلى أشهى الثمار. أما

إذا رفعنا الحظر فإننا نقضى على دافع له خطره. ولا يعني هذا أنه سوف يؤدي إلى القضاء على اهتمام الأطفال بالجنس ولسنا نقول بأن من الخير لهم أن يمضى هذا الدافع إلى غير رجعة، فالجنس مصدر طيب يستمد منه الطلاب الوحي والإلهام الأدبي. والحق أن بعض مجهودات الشباب الفنية التي لا يكثر لها الكبار إنما تعبر عن قدرة وابتكار. نحن لا ننكر ما قد يشوب هذا الإنتاج، فغالباً ما يكون في لغته إسفاف، والانفعالات التي يعبر عنها سقيمة فجة - والطفل معذور في ذلك فنحن لن نهين له خيراً من تلك الألفاظ ما يصلح بديلاً عنها! فإذا كان هذا النقص هو كل ما يشوب إنتاجه وليس ثمة دليل على اضطراب نفساني جنسي أو انحراف فكري فعليك أن ترشد التلميذ إلى مصادر وقراءات أفضل مما معه، وأن تجعله يدرك أن الأطفال الآخرين ربما لم يصلوا بعد إلى مثل درجته من الاهتمام بالجنس، وأن تبين له كيف أن الحكمة تستوجب ألا يوزع مثل هذه الكتابات في المدرسة. نعم، قد لا يجدى هذا الاقتراح في كل حالة، ولكن يحتمل أن يكون هذا التصرف أفضل كثيراً من الوسيلة المعتادة وهو وسيلة العقاب والتحرير.

### فحش القول:

وتنطبق نفس الاعتبارات السابقة على مشكلة استخدام بعض تلاميذ المدارس «للألفاظ القبيحة» في محادثاتهم الخاصة. غير أننا ننصح بضرورة التأكد من درجة فحش هذه الألفاظ وأن نتبين ما إذا كان هؤلاء الأطفال يجهلون التسمية العلمية لهذه المفردات أو لا يألّفونها ألفة تشجعهم على استخدامها في أحاديثهم الخاصة، فالطفل الذي يرغب في التحدث عن الأعضاء أو العمليات التي تتطلب استعمال كلمات القضيبي أو المهبل أو الجماع وما إلى ذلك ليست لديه الخبرة العلمية التي تمكنه من استخدام المصطلحات العلمية، فيضطر إلى استخدام تلك الكلمات الدارجة البذيئة التي يعتبر المجتمع أنها انحطت وهوت إلى الحضيض. فإذا ما تم ذلك تبيّن أن قدراً كبيراً مما نعتبره من فحش القول يصبح مناسباً تماماً إذا عبرنا عنه باسمه البيولوجي العلمي. يتضح من ذلك أن ما يجب علينا عمله لا يتلخص في محاربة استعمال الكلمات الفاضحة وإنما في تهيئة اللفظ المحترم. ولا بد لنا من أن نوضح للتلميذ أن الألفاظ وإن كانت لا تتمايز بعضها عن بعض من حيث الجوهر، إلا أن المجتمع المهذب لا يرضى عن بعض هذه الألفاظ ولا ينظر بعين الرضا إلى استخدامها في الحديث.

وإذا كنا قد التمسنا العذر للأطفال في استخدام تلك المفردات فإن هذا لا يمنعنا من القول بأن بعض أحاديثهم قد تتضمن بعض أفكار لا يرضى عنها المجتمع. وربما كان سبيل النجاح في معالجة هذه المشكلة أن نوضح للطفل «لماذا» تعتبر مثل هذه الأفكار غير مرغوب فيها. حدث ذات مرة أن قال أحد الريفيين لرجل من رجال الدين إنه يصرح دائماً بما يجول في

خاطره، فردّ عليه بقوله: «ليست العبرة فى أن تقول ما يعنّ لك، ولكن العبرة أن تفكر ملياً قبل أن تصرّح بما تريد». والحق أن هذا هو لب الموضوع، فنحن لا يهمنا كون الألفاظ المستعملة فجة صريحة بقدر ما يهمنا الاتجاه الذى تدل عليه الفكرة التى تعبر عنها هذه الألفاظ.

### الرسوم الجنسية:

ومما يدعوننا إلى السخط تلك الرسوم الجنسية التى يرسمها التلاميذ على الورق أو على حيطان دورات المياه ويكشف أغلبها عن اتجاهات غير سليمة نحو الجنس، ونتخذ مدى شيوعها مقياساً صادقاً للحكم على الجو المدرسى العام. ونحب هنا أن ننصح بضرورة التفريق بين مجرد الرسوم الجنسية غير المرغوب فيها وبين الرسوم الخبيثة حقاً، فكثير من الأولاد يشعرون بالحافز إلى الرسم حتى إذا بلغ الواحد منهم السن التى يهتم فيها بالجنس اهتماماً انفعالياً اتخذ من حيطان دورات المياه لوحات لرسم الصور العارية وهى صور يبدو فى كثير منها - والحق يقال - قدر كبير من الجودة والإتقان.

واعتراضنا الوحيد على هذه الرسوم ينصب على المكان، لأن حيطان دورات المياه ليست مكاناً صالحاً للرسم كما أن وجود مثل هذه الرسوم فى مثل هذه الأماكن قد يؤدى إلى تكوين ارتباط فكرى بين الجنس وبين الأوساخ والموبقات، كما قد يغرى على مزاوله الاستمنا. ويمكن حل هذه المشكلة بوسيلتين: أولاًهما أن يراعى جعل حيطان دورات المياه نظيفة لامعة - ويفضل أن تكون من مادة بيضاء صلبة مثل القيشانى الأبيض الأملس الذى لا يمكن الرسم عليه، هذا إلى أنه يدفع التلاميذ إلى المحافظة على نظافته؛ ومن ناحية أخرى ينبغى أن ننظر إلى ما قد يبديه الطفل من اهتمام بمسألة العرى والصور العادية نظرتنا إلى أمر عادى ونهينى له سبيل إشباع هذا الاهتمام. فإذا أراد الطفل مثلاً أن يرسم العرايا هيئتها فى درس الرسم الفرصة المناسبة للتعبير عن هذه الرغبة. وإذا ما زوده المدرس بتشجيعه وتوجيهه بالقدر المناسب غلبت الناحية الفنية على اهتمامه وزال كل ارتباط غير مرغوب فيه.

وليس هناك شك فى أن الرسوم العارية التى يرسمها بعض التلاميذ أحياناً تمثل الفحش حقيقة وتكشف عما تنطوى عليه عقولهم من عوج وانحراف. وينطبق هذا الكلام بنوع خاص على الرسوم التى تضم فيها أعضاء التناسل كما ينطبق على الصور الشمسية العارية أو الرسوم التى تضاف عليها بعض التفصيلات الجنسية. وإن كان يقال أحياناً أن الطفل عندما يضيف الأعضاء التناسلية للصورة التى حذف منها هذه الأعضاء لا يفعل أكثر مما يفعل عندما يقوم برسم العينين والأذن والفم للوجه الذى خلا منها وأن هذا العمل لا يتعارض مع التصرف الطبيعى فى شئ.

ونحن من جانبنا لا ننكر أن مثل هذه الأعمال قد تفصح عن مكنون نفسه وتخرج الأمر من السر إلى العلن. ورغم ذلك فمن السذاجة أن نتوقع نجاحاً تاماً سريعاً في إصلاح نفوس مثل هؤلاء الأطفال.

## الصور العارية:

وثمة وسيلة تشيع بين الأطفال ينفسون بها عن اهتمامهم بالجنس، تلك هي مشاهدة الصور العارية. وقلما تكون هذه الصور فاحشة في حد ذاتها، بل إنها تكون في بعض الأحيان من روائع الفن الخالد ولذلك لا توجه إليها معارضة جديدة في الغالب. ولما كان من الممكن الحصول على معظم المجالات التي تحتوى صوراً عارية أو شبه عارية بأثمان معتدلة فإنها تشق طريقها إلى أيدي تلاميذ المدارس وتشيع بينهم. فماذا عسانا نفعل؟ ينبغي على كل معلم أن يراعى في علاجه لهذه المشكلة سن التلاميذ ودرجة نضجهم من الناحية الانفعالية ومدى إقبالهم على هذه الصور. إن أول ما ينبغي أن نلخص الأطفال منه هو اعتقادهم بأن مشاهدة مثل هذه الصور يجب أن تتم في السر بعيداً عن أعين الرقباء. يدلنا على وجود هذا الاعتقاد عندهم مبادرتهم إلى التفرق وإخفاء الصور عندما يسمعون وقع أقدام المدرس تدنو منهم، فإذا ما دخل الفصل وكان بعض التلاميذ يشاهدون عدداً منها سمعنا صوت الأذراج وهي تغلق لتخفى في بطونها تلك المحرمات. فإذا أنت أفلحت في أن تقتلع هذا الاعتقاد من نفوسهم. الاعتقاد بضرورة إخفاء هذه الصور عن أنظار المعلم بأي ثمن خوفاً من العقاب فإنك تكون قد قطعت شوطاً بعيداً في حل المشكلة.

وإذا ما لاح أن اهتمام الأطفال بمثل هذه الصور هو ولع مرضي معوج فإن الأمر يتطلب وقتاً طويلاً لتقويمهم من الناحيتين الفكرية والانفعالية. ولكن يحدث في أغلب الأحيان أن يكون إقبال الأطفال على هذه الصور مجرد تعبير عن اهتمام طبيعي عندهم، وإن كان هذا الاهتمام يقوى في بعض الأحيان نتيجة لكبت ميولهم زمناً طويلاً، ويشتد نتيجة لما يحسونه من الاعتباط بعمل شيء، يروع الكبار ويعتبره بقية التلاميذ ضرباً من «الرجولة».

إن مثل هذه الحالات السابقة لا تجعلنا نواجه مشكلة حقيقية يعسر حلها. وهي لا تتطلب منا أكثر من مناقشة الأمر أمام التلاميذ وعدم اعتبارهم مذنبين، وأن نهيب لهم نواح للتنفيس عن هذا الاهتمام خيراً مما عندهم - وإذا حدث وشقت مثل هذه المجالات طريقها إلى أيدي الأطفال الذين لم ينم عندهم بعد مثل هذا الاهتمام بنوعاً طبيعياً لصغر سنهم، وأردنا أن نحول بينهم وبين المثير الذي قد يؤدي إلى استثارتهم قبل الأوان، أمكننا أن نتبع الأسلوب الذي اتبعه أحد المعلمين مع تلميذه وكان في السابعة من عمره: رآه ذات مرة يحمل إحدى مجلات الصور العارية، فقال له بلهجة عادية: حقاً أنها صور لطيفة، أليس كذلك؟ ولكن ألا تفضل

أن تأخذ مجلة فكاوية بدلا منها؟» فأجاب التلميذ على الفور: «أيوه يا فدى» فقال: «هل لك أن تبادلني؟ أعطني مجلتك الآن وسوف أحضر لك مجلتي غدا». وربما كان العيب الوحيد لمثل هذه الطريقة هو توفير الأعداد الكافية من المجلات لمواجهة تهافت الأطفال، فقد حدث في الحالة التي أشرنا إليها عندما تبين للتلاميذ ميزة المجلة الجديدة أن تهافتوا على أن يستبدلوا بمجلاتهم مجلات أخرى من النوع الجديد، حتى لقد كان الواحد منهم يسرع ويده إحدى المجلات ويسأل ما إذا كان باب استبدال المجلات لا يزال مفتوحاً!

### الصحف البتذلة:

وثمة نوع آخر من المطبوعات - يرد أغلبه من الخارج - ويختلف عن مجلات الصور العارية وشبه العارية ونقصد به تلك المجلات التي تتعمد استثارة الشهوة البهيمية. ولهذه المجلات أثر سيئ على التلاميذ ومن الخير ألا تقع في أيديهم. وأغلب الصور التي تتضمنها مثل هذه المجلات لا تمثل الأجسام العارية فقط وإنما تمثل المرأة وهي تتحرر من ملابسها قطعة قطعة أو تصورها في أوضاع مثيرة، وهي لا ترمي من عرض هذه الصور إلى بيان المحاسن والمفاتن بقدر ما يصرح لسان حالها بأن الخطوة التالية هي الجماع. كما تنطوى قصصها على نفس المرمى، بل وتعطي القارئ فكرة خاطئة بأن الجماع عملية جسمية صرفة ليس فيها أي أثر للمشاركة الوجدانية العميقة. بل أنها قد تدفع المرء إلى الظن - وبعض الظن إثم - بأن إهداء المرأة معطفاً من الفراء أو عقداً من اللؤلؤ أو ما انخفض عن ذلك أو ارتفع قيمة يمكن اعتباره بديلاً مناسباً في مقابل استمتاع الرجل بها. وليس هناك أدنى شك في أن هذه الأمور كلها قد تعطي الناشئ فكرة منحطة عن الجنس. كما قد تثير اهتمامه بالجنس قبل أوانه، كما تعتبر تحريضاً على الفسق وتضعف من قدرته على مقاومة الرغبة في الاستمنا. ولذا فكل منصف سديد الرأي لا يتوانى عن التنديد بها.

غير أن مجرد القول بضررها لا يكفي للقضاء عليها فقد يكون الكبار لها كارهين بينما يقبل عليها الفتيان متلهفين، فما هو العلاج الملائم لهذه المشكلة؟ علينا أن نفرق بين الحالات المختلفة، وليس من العسير علينا في حالة التلاميذ الكبار الذين حصلوا على تربية جنسية مناسبة أن نبين لهم انحطاط هذه المجلات، أما صغار الفتيان أو كبارهم ممن أهملت تربيتهم الأولى فتدعوننا الحكمة إلى اتباع أساليب أكثر حزمًا. فالإقتصار على مصادر المجلات ومعاينة قرائها علاج لا يحل المشكلة. إن العلاج الناجح يستلزم معرفة المصدر الذي يمد التلاميذ بهذه المجلات. عند ذلك يستطيع ناظر المدرسة أن ينصح البائعين بعدم عرض هذه المجلات أو بيعها للتلاميذ. وإذا لم يؤد حديث الناظر مع البائعين إلى أية نتيجة إيجابية انتقل الأمر من يد الناظر ودخل في اختصاص البوليس والمحكمة.

## العرى:

يشب كثير من الأطفال وهم يشعرون بأن العرى عمل خاطئ وأن أعضاء التناسل من الأشياء التي يجب حجبها عن الأنظار، فليس ثمة ما يدعوننا إلى الدهشة إذن إذا علمنا أنهم يشعرون بالمتعة من رؤيتها أو من عرضها، ولكن العرض والاستعراض الذى يشوبه الخجل هو النوع غير المرغوب فيه إطلاقاً. نحن نعرض فى ردهات المدرسة وممراتها صوراً مختلفة تعبر عن شتى المشاعر الإنسانية، فإذا تخيرنا منها بعض الصور العارية المناسبة أتحنا بذلك الفرصة لظهور مدى الاهتمام والاستمتاع الذين يحسهما ذوو النفوس السليمة عند رؤية الجسم البشرى. وإذا سمحنا للتلاميذ باستخدام حمامات المدرسة وأحواض السباحة وهم عرايا دون أن يكون ثمة ما يدعوهم إلى الخجل فإن ما يشوب اهتمامهم من أفكار غير بريئة يتبدد سريعاً<sup>(١)</sup>.

واختلاف اتجاهات التلاميذ نحو العرى أمر طبيعى يدلنا على ذلك ما سطرته إحدى المدرسات فى مدرسة داخلية للبنات بإنجلترا تصف سلوك التلميذات فى هذه الناحية فقالت ضمن تقرير لها: «.. أما عن العرى فقد تباين موقف التلميذات منه تبايناً ملحوظاً. إن موضع حمام المدرسة يحتم على التلميذات خلع ملابسهن فى مكان واحد. فعندما حان موعد الاستحمام لم تعارض معظمهن فى خلع الملابس فى مكان واحد غير أن بعض التلميذات عارضن فى ذلك يادئ الأمر، ولكنى أعتقد أن أمهاتهن هن اللائى يصدمن من ذلك. ولقد لاحظت أن صغار التلميذات كن يخلعن ملابسهن ويستحمن بدون إبداء أى اعتراض».

وقد تصادف المعلم بعض الصعوبات لأن بعض التلاميذ ينفرون من الكشف عن أجسامهم، مثال ذلك ما حدث فى إحدى المدارس الثانوية فى إنجلترا. فعندما أقامت هذه المدرسة (أدثاشاً) ألحقتها بملعب المدرسة ليستحم التلاميذ تحتها بعد أداء تمارينهم الرياضية، لم يقبلوا على خلع سراويل اللعب وصمموا على لبسها وقت الاستحمام تفادياً للكشف عن أجسامهم أمام زملائهم. وقد مضى معظم الموسم قبل أن يستطيع المعلم دفعهم على خلعها بعد أن أقنعهم بأن موقفهم هذا يتطلب تجفيف السراويل مرتين كل أسبوع - وهو فى بلاد باردة مثل إنجلترا مهمة تستغرق وقتاً - مع ما فى ذلك من تعطيل اللعب وضياع المجهود. ثم مر نصف فترة أخرى قبل أن يرجعوا عن التمسك يجذب السجف - التى تفصل بين الدش والدش المجاور له - حتى لا يلحظ زملاؤهم أن لهم أيضاً أعضاء تناسل مثلهم. ولم يكذب يقترب العام من نهايته حتى استغنى التلاميذ عن تلك السجف واستخدموها فى أغراض أخرى مفيدة، وأصبح اتجاه التلاميذ نحو الجنس اتجاهاً طبيعياً جداً.

(١) قد يهول هذا الاقتراح بعض المتزمتين ولكن هذا التهويل قد يخف لو أنهم ذكروا واقع الأمر فى ريف مصر مثلاً وعلى شطآن ترعها وقنواتها، ولو أنهم ذكروا أن سكان الريف قد يكونون أصح نفساً من سكان المدن.

وعندما نكون بصدد الكلام عن حمامات السباحة العمومية نلاحظ دقة الموقف إما لوجود أنظمة خاصة أو لوجود أفراد الجمهور، ولذا يتحتم على الأطفال ارتداء لباس الحمام فى تلك الأماكن. أما إذا كان للمدرسة حمامها الخاص بها أو كانت تنفرد باستخدام حمام عام لفترة معينة فيمكن الأطفال حينئذ الاستغناء عن لباس الحمام، وهذا هو ما يفعله فى الواقع أبناء الأغنياء وأبناء الفقراء. وقد علق على ذلك أحد المدرسين بقوله :

«إذا حذت المدارس حذو هؤلاء - يقصد أبناء الأغنياء والفقراء - تكون قد منحت أطفال الطبقة المتوسطة الأمتياز الذى كان يتمتع به منذ زمن بعيد تلاميذ المدارس الخاصة، كما يتمتع به الأطفال الفقراء مرغمين إذ لا يتيسر لهم استخدام الحمام أو اقتناء لباس البحر فيذهبون إلى أقرب ترعة مجاورة مجردين عن الثياب».

هذا ولا يصح إطلاقاً أن نفرض العرى قهراً على الأطفال الذين يتخرجون منه، ولكن عدد هؤلاء سوف يقل بالتدريج وخاصة فى المدارس التى يكون ارتداء لباس الحمام فيها هو الاستثناء لا القاعدة. وعلى كل حال فسوف يكون بين البنات - وبخاصة المراهقات منهن - من تميل إلى ستر نفسها. وتحضرنا بهذه المناسبة حالة جديرة بالذكر فى مدرسة للتعليم المشترك تتبع النظام الداخلى فى إنجلترا. لقد كان بهذه المدرسة حوض للسباحة خاص بها يستحم فيه التلاميذ جميعاً من بنين وبنات. ولم يكن يرتدى لباس البحر من التلاميذ والتلميذات ممن لم يتخط الرابعة عشرة سوى عدد قليل، أما معظم الكبار منهم فكانوا يفضلون ارتداء لباس البحر إذا استحم مع الجنس الآخر، بينما كان يفضل التحرر منه إذا كان يستحم مع أُنْدَاد من نفس جنسه.

ولم يكن ذلك مجرد اصطناع للحشمة من جانبهم - ولم يكن جو المدرسة يشجع مثل هذا التصنع - ولكن يبدو أن ذلك الموقف كان نتيجة لتحفظ طبيعى من جانبهم. فماذا فعلت المدرسة؟ إنها لم تجبر تلاميذها على العرى، لا بل ولم تزجر من ارتدى منهم لباس البحر. ولو قد فعلت ذلك لأخطأت خطأً بليغاً. فقد يؤدى هذا التصرف بالأطفال إلى توجيه انتباه خاص إلى أعضاء التناسل على نحو ما ينجم عن إصرارنا على سترها. وحيثما رغب التلاميذ فى الاحتشام يجب احترام رغبتهم. ولكن احترام تلك الرغبة شئء وتشجيع ما يشعر الأطفال بأن العرى شر فى ذاته أمر آخر يخالف الأول كل المخالفة.

وقد دونت إحدى ناظرات المدارس التقدمية فى إنجلترا فى مذكراتها ما يدل على أن صغار الأطفال ينظرون إلى العرى ببساطة على أنه أمر عادى. فقد جاء فى هذه المذكرات ما يأتى :

«عندما اجتاحت المدينة موجة الحر القاسية كان على الأطفال أن يقوموا بحركات إيقاعية داخل الفصل. وكانت المدرسة قد اقترحت أن يتخفف التلاميذ فى مثل هذه الظروف من

ملابسهم، على أن يبقوا بالسراويل فقط - وقد وافق على هذا الاقتراح أولياء أمور التلاميذ ولم يرفض سوى اثنين منهم فقط. ولما أخذ الأطفال فى خلع ملابسهم الخارجية إذا بأحدهم يخلع ملابسه كلها، ولم يبد من بقية الأطفال ما يدل على أنهم وجهوا إليه اهتماماً خاصاً، فقالت له المعلمة «لا يا بنى، لا تخلع سروالك فأكبر الظن عندى أن والدتك لن توافقك على خلعه أيضاً». فرد عليها الطفل قائلاً «نعم، نعم، هي تحب أن أفعل ذلك». وتصادف أن كان هذا الطفل بالذات ابن مدير المدرسة فلما انتهى إلى علم والدته ما بدر منه، قالت إن ابنها لم يطلب منها السماح بذلك أبداً وإن كان ليس لديها ما يجعلها ترفض تصرف ابنها. ورغم ذلك فقد طلبت منه المعلمة أن يرتدى سرواله ثانية.

ثم حدث أن اشتد القيظ فسأل الأطفال معلمتهم عما إذا كانوا يستطيعون خلع ملابسهم كلها فقالت لهم المعلمة أنها لا تحب أن يقوموا بالرقص عراياً، ثم أخبرتهم أن بعض الناس يحبون أن يعرضوا أجسامهم العارية لأشعة الشمس وأن المكان الوحيد الذى يستطيعون التمتع فيه بحمام الشمس على ذلك النحو هو الأرض السندية الخضراء المجاورة للمدرسة - وكانت هذه الأرض ملكاً لمدير المدرسة وقد خصصها لحصص التدريبات البدنية. فإذا جاء يوم الجمعة - وكان نصفه الثانى مخصصاً للألعاب الحرة. وكان الجو لا يزال حاراً فسوف نسمح لمن حصل على موافقة والدته بالتححرر من ملابسه. وعندما حل يوم الجمعة سئل كل طفل عن رأى أمه فتبين أن ٧٠٪ من الأمهات قد وافقن، وهكذا أمضى الأطفال عصر يوم ممتع. وقد رأيت بعينى رأسى تلاميذ المدرسة - العرايا منهم وأولئك الذين تخففوا من بعض ملابسهم فقط - وكلهم منصرف إلى الاستمتاع باللعب بالكور والقفز بالحبل.. ولم تبد منهم أية إشارة بالقول والعمل تشتم منها رغبة أحدهم فى التطلع إلى جسم زميله بقصد الاستطلاع وإنما كان سلوكهم يدل على أنهم اعتبروا هذا العمل جانباً عادياً من الحياة المدرسية.

وهذا النجاح لا ينفى احتمال وجود أم ضيقة الأفق كتلك التى سألت ابنتها عما حدث وكانت الابنة فى الخامسة من عمرها. عند ذلك اضطربت الطفلة وتضرجت وجنتاها بحمرة الخجل ثم قالت «لقد خلع كل طفل سراويله إلا أنا والمعلمة» فردت عليها أمها قائلة «ألا فاعلمى يا بنيتى أن الدين يحرم العرى ولذا فقد وهبنا الله لباساً يوارى سواننا».

وقد وفقت نفس المعلمة إلى حل معقول فى ظرف آخر استغلت فيه الضبط الاجتماعى فقد حدث لها أن شاهدت إحدى التلميذات - وكانت فى التاسعة من عمرها ولكن جسمها كان نامياً - فى الملعب وقد ارتدت سروال اللعب فقط - وكان الملعب محاطاً بسياج من حديد يجعله مكشوفاً لمن يمر فى الشارع المجاور، فقالت لها المعلمة فى سياق الكلام إنها تنمو الآن بسرعة وربما كان من الأفضل بالنسبة لها أن ترتدى صديريتها إلا إذا كانت فى مكان غير مكشوف، وإن البنات الكبار يحبون أن يسترن أجسامهن فى حضرة الغرباء. ويخيل إلى أن

هذه النصيحة كانت موضع تقدير البنات كما كانت موضع تقدير بقية التلميذات. وعندى أن الاتزان العقلي عند المعلم يؤدي إلى الاتزان العقلي عند الطفل. ويستطيع المعلم أن يكون عند الأطفال اتجاهًا سليمًا نحو العرى بدون أن يعرفوا أجسامهم خارج الأماكن الخاصة.

### غراميات البنين والبنات:

وتتحدد المشكلة في المدارس المختلطة على الأخص على النحو الآتي «كيف نتصرف إزاء ما قد ينشأ بين كبار التلاميذ والتلميذات من (علاقة)؟» فنرد متساءلين «ولماذا يتحتم علينا أن نفعل شيئاً؟» ينبغي أن تنمو هذه العلاقات البريئة في ضوء النهار وبكيفية سليمة وفي جو سليم بدلاً من أن يعتمرها الغرض السئ ويستحيل لونها نتيجة إحقاقها في الظلام. ويبدو لي أن أغلب المعلمين الذين يثيرون هذه المشكلة يهتمون بنوع خاص «بسمعة مدرستهم» أكثر من اهتمامهم بسلامة النمو الانفعالي لتلاميذهم. وعندى أن ما ينشأ من علاقة الصداقة البريئة بين شباب الجنسين قد يصبح عنصراً ثميناً في تربيتهم، ولاشك في أن الأولاد والبنات الذين يتلاقون معاً في ظروف العمل العادية تتكشف لهم الأخلاق والطباع على حقيقتها ويدركون سريعاً أن الصداقة التي تستند إلى مجرد الجاذبية الجنسية عقيمة لا تقارن بالصداقة التي تقوم نتيجة للزمالة الفكرية والاحترام المتبادل.

وكلامنا السابق لا ينصب إلا على علاقة الصداقة البريئة، أما إذا تطورت هذه الصداقة ودخلت مرحلة التلامس والمعانقة أو الاتصال الجنسي بالفعل فإن الحاجة تصبح ماسة إلى علاج حاسم سريع. إذ أنا مهما اختلفنا في المستوى الخلقى الذي ينبغي أن يلتزمه الكبار فمن المتفق عليه عامة أن تلك الفعال غير مرغوب في وجودها بين أطفال المدارس، ولذا فإن المدرس الذي يصطنع الحزم في منعها يكون محقاً كل الحق في ذلك. ومهما كان الأمر فلن يقع هذا سوى نادراً، والعادة أن هذه العلاقات الغرامية لن تكون سبباً للجزع أو القلق.

### التجريب الجنسي:

إن الأطفال مخلوقات صغيرة تهوى الكشف والمخاطرة، وعلى المرء أن يوطن نفسه على مواجهة ما يحتمل أن يقوموا به من تجريب جنسى، أو ما يبدو أنه من هذا النوع. ومن المسلم به وجود هذا اللون من نشاط الأطفال في كثير من المجتمعات البدائية، ولكن هناك من يشك في أن أطفالنا يقومون بمثله. غير أننا نبدد هذا الشك بذكر ما لاحظته إحدى ناظرات المدارس، وهي ممن يرهفون السمع ويفتحون العيون في دراسة الأطفال، قالت: «إن صغار الأولاد والبنات يلعبون معاً لعباً جنسياً خلف الشجيرات».

وكثيراً ما يستغل المعارضون للتربية الجنسية احتمال قيام الأطفال بهذا النوع من التجريب فيتخذونه حجة ضدها وذلك عندما تبوء هجماتهم بالفشل، غير أن حل المشكلة يتطلب

لا الإقلال من التربية الجنسية بل زيادتها والارتفاع بمستواها. فإذا كان من يقوم بالتجريب الجنسى أطفال لم يبلغوا الحلم بعد فمن الخير أن نتدبر الأمر فى شىء من الهدوء أكثر مما نفعل مع كبار التلاميذ، وذلك لعدة أسباب: ففى حالة الأطفال الصغار ليس هناك ما يدعونا إلى الظن بوجود فكرة معينة لا نرغب فى وجودها فى أذهانهم، أما فى الحالة الثانية فثمة احتمال لذلك، مما يفرض علينا استخدام تدابير أكثر حزمًا. كما أن الآثار التى ترتب على قيام صغار الأطفال بهذا النوع من التجريب ضئيلة جداً من الناحية الخلقية، ذلك لأن الأخلاق الحقيقية إنما تتكون نتيجة للاختيار القائم على الفهم المبني على التفكير والتقدير الوجدانى للنتائج المترتبة على هذا الاختيار، وإن كان انقياد المرء للتقاليد دون تفكير أمر يحمده المجتمع. والرأى عندى أن التجريب الجنسى أو ما يبدو أن له هذه الصفة لا يكاد يعتبر فجوراً من جانب الطفل أو دليلاً على فساده حتى يفهم مختلف المعانى الشخصية والاجتماعية للناحية الجنسية وحتى يعانى بعض انفعالاتها. ورغم ذلك فيمكن اعتبار قيام الأطفال به أمراً غير مرغوب فيه كى لا يصبح عادة تنشأ مبكرة قبل البلوغ وما قد تؤدى إليه من فهم للجنس غير مرغوب فيه أو احتمال تكوين اتجاه تافه خاطئ نحو الجنس. وعلى ذلك ينبغي للمدرس أن يحول بين الطفل وبين الانقياد لهذه النزعة، لا باللوم الخلفى أو العقاب البدنى ولكن بالتثبيط الهادئ وتهيئة نواح من النشاط تصلح بديلاً لهذه النزعة.

ولما كانت بعض عناصر الأخلاق الجديدة تبدأ فى الظهور عند المراهقين إذ يكونون بصدد تقدير مغزى الجنس فى الحياة، فإن الحكمة تستدعى أن تناقش هذا الأمر معهم بشكل مباشر وأن تشير إلى الأسباب التى تجعلنا نعتبر مثل هذه التجارب غير مرغوب فيها، وفى وسع معظم البنين والبنات بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة أن يدركوا مدى ارتباك حياتهم والكوارث التى تنزل بهم إذا ما أصبحوا آباء قبل الأوان كما أنهم كفيلون بالشعور بمقدار المسؤولية التى تقع عليهم بإزاء طفل يولد فى مثل هذه الظروف القاسية.

وقد تجدى المناقشات وهى تحمل بين طياتها تحذيراً صريحاً من العواقب الوخيمة لمثل هذا السلوك، ولكن ما العمل إذا أخفقت ولم تحقق الغرض المقصود؟ إن هدف هذه المناقشات لا يقتصر على تحصين أخلاق الطرفين وإنما يشمل إنقاذهم من نتائج سوء تصرفهم ومنع ما قد ينجم عنه من عواقبه الوخيمة بالنسبة للآخرين أيضاً. وفى ظرف كهذا قد يشعر المعلم أنه ملزم باتخاذ تدابير قاسية حتى ولو أدى الأمر إلى التفريق بين التلاميذ الذين أوجدوا المشكلة بتحويل أحدهم على الأقل إلى مدرسة أخرى. وهذا العلاج وإن كان لا يحل المشكلة بالنسبة للأفراد ذاتهم - إذ يتطلب الأمر تربيتهم من جديد - إلا أنه يقلل ما قد يترتب على هذه المشكلة من عواقب وخيمة.

ومهما كان الأمر فيجعل بنا ألا ننظر إلى أسلوب معين من سلوك أطفال المدرسة نفس نظرنا إلى ما يشبهه من سلوك الراشدين. والواقع أن لكل حالة فردية علاجها الخاص وليس

أقدر من المدرس المختص، وهو الخبير بحالة الطفل الفكرية والوجدانية وحالته المنزلية وما إلى ذلك، على وضع قواعد معينة لعلاج كل حالة من هذه الحالات. ويستطيع العالم النفساني أن يبذل في أغلب الحالات مساعدات قيمة وينبغي للمعلم أن يستأنس برأيه إذا استغلق عليه الأمر.

### الاستمناء:

لقد صادف معظم المعلمين في مدارس البنين مشكلة الاستمناء في وقت من والأوقات، ولكن الكثيرين منهم لم يدروا كيف يتصرفون بإزائها. وهذه المشكلة لا تخص المراهقين فقط وإنما يزاولها الأطفال الصغار أحياناً. وقد قام أحد نظار المدارس الابتدائية الداخلية في إنجلترا ببحث حالات ١٥٠ ولداً متوسط سنهم ١٠,٥ سنوات. وقد دل البحث على أن:

٣٤% منهم لم يزاولوا عادة الاستمناء إطلاقاً

١٤% زاولوا تلك العادة في وقت من الأوقات ثم أقلعوا عنها نتيجة لتأنيب ضمائرهم أو لأن أمهاتهم قد تحدثن إليهم بشأنها.

١٠% يزاولون العادة السرية كل ليلة.

٢٧% يزاولون العادة السرية مرة كل أسبوع.

١٥% يزاولون العادة السرية مرة كل أسبوعين.

ونحن لا ندعى أن هذه النسب تنطبق على جميع الأولاد في هذه السن، ولكنها تصدق بالتأكيد على من هم أكبر منهم بقليل. وغالبية الأطفال يقعون في أسر تلك العادة في بعض أدوار حياتهم. ومن المهم أن نشير إلى أن مزاوله هذه العادة لا تحدث في نفوس الصغار من الاضطرابات النفسية ما تحدثه عادة في نفوس الكبار منهم.

وإذا بحثنا حالات الذين زاولوا هذه العادة في سن مبكرة نجد نسبة البنات أعلى من نسبة البنين. والإحصاء التالي مأخوذ من عدة أبحاث قام بها إحصائيون وهو يمثل النسبة المئوية لعدد من يزاولون العادة السرية في مختلف الأعمار.

نسبة الإناث	نسبة الذكور	السن التي بدأت عندها مزاوله العادة
٤٩,١%	٢٠,٩%	حتى سن ١٢
١٤,٦%	٤٤,٣%	من ١٢ - ١٥
٦,٢%	٣٠,٣%	من ١٥ - ١٨
٣٠,١%	٤,٥%	بعد ١٨

ومن المحتمل أن ينظر كثير من الراشدين بعين الشك إلى النسب التي أوردتها الإحصائية عن عدد البنات اللاتي يزاولن هذه العادة في طفولتهن. ولاشك في ضرورة القيام ببحوث أوسع للوصول إلى أساس أكثر رسوخاً لتكوين رأى صائب.

وفي معظم الحالات نجد أن طريقة الذكور في الاستمناء الفردي هي مسك القضيب باليد، وإن كانت هناك أساليب أخرى معروفة. أما الإناث فيحصلن على اللذة عادة من مجرد حركات الفخذين أو بحك المناطق التناسلية بالأشياء الخارجية كألدراج والمقاعد، وقد عرفت بعض حالات استخدمت فيها الأقلام والشموع وما شابهها بديلاً عن القضيب. وهذه حالات شاذة لن تصادفها المعلمات في المدارس إلا في النادر. ومع ذلك فعليهن بالحيلة حتى إذا وجدت هذه الحالات وجب الاستعانة بالطبيب النفساني لعلاجها.

وعندما نكون بصدد الكلام عن الأطفال العاديين فإن أول ما يجب تقريره هو أن الاستمناء ليس مشكلة خطيرة على نحو ما ننظر إليه في العادة. وسوف تعالج هذه المسألة كلها بتفصيل أوسع في فصل تال. لكننا حتى مع التسليم بهذا يندر أن نجد أحداً من ذوى الخبرة في هذا الموضوع يستطيع أن ينكر أن مزاولة الاستمناء - وهو قليل الضرر أو عدم الضرر على الإطلاق - قد تصبح في ظروف معينة أمراً باعثاً على السخط والاعتراض حقاً، كما يحدث عندما يلجأ التلاميذ في المدارس الداخلية إلى عنابر النوم أو إلى دورات المياه بالمدارس الخارجية لمزاولة الاستمناء المتبادل. وكثيراً ما كان طلب أحد التلاميذ الإذن بمغادرة الفصل وسيلة لإخفاء قصده مزاولة الاستمناء حيث لا يحتمل أن تكشف فعلته. وقد يكون الاستمناء ضاراً في بعض الأحيان، ولكن هناك احتمالاً في أن يؤدي الإدمان عليه، في مثل تلك الأماكن إلى الربط بين وظائف التناسل والإخراج بكيفية تحمل معها بذور الاضطراب أو الشذوذ الجنسي. وقد يلجأ الأولاد أزواجاً أو جماعات إلى دورات المياه حيث يزاولون معاً العملية التي يزاولها الواحد مفرداً في العادة. ويحتمل جداً في مثل هذه الظروف أن يتكون لديهم، إذا كان قد بقى في نفوسهم بعض الحياء، شعور بالاشترار في الإثم، شعوراً قد يهين لهم شيئاً من النشوة ولكنه قد يصبح فيما بعد أساساً لكثير من التعاسة. ذلك لأن هذا الطريق هو أحد السبل التي تؤدي في النهاية إلى الجنسية المثلية أو عشق الجنس.

فما الذي ينبغي علينا أن نعمله إذن؟ سوف نتكلم عن ذلك بإسهاب في موضع آخر. غير أننا نؤكد منذ الآن أن الحل السليم لا يتفق مع ما تلجأ إليه بعض المدارس الداخلية من إزالة جميع مزاليج أبواب المراحيض وعدم السماح بوجود أكثر من تلميذ واحد خارج الفصل في نفس الوقت. ولعلك تدرك أن مثل هذا العلاج هين جداً ولكنه غير موفق أبداً، بل إنه قد يثير في أذهان الأطفال بعض الأفكار التي ما كانت تخطر لهم إلا نتيجة له. كما أن مثل هذا العلاج يستلزم تشدد المدرسة في تنفيذ التدابير «الوقائية» فتكلف أعضاء هيئة التدريس مراقبة

التلاميذ سراً في مخادعهم مما يؤدي بهم إلى التطفل على شئون التلاميذ الخاصة إلى حد لا يمكن احتمالها. إن الحل السليم يتطلب من المرء أن يوازن بين أمرين: بين الاحترام الواجب لحق التلميذ في حياة خاصة به وبين الحاجة إلى دراسة التلميذ عن طريق توجيه أسئلة لبقة إلى من يظن فيهم الإسراف في مزاولة العادة السرية. وقد تظهر نتيجة لهذا البحث اللبق ضرورة استشارة أحد الإخصائيين في المسائل النفسية غير أنه يكفي في أغلب هذه الحالات حديث مخلص عطوف مع أولئك التلاميذ. وإذا حدث أن أخفقت هذه المحادثات فليس ثمة ما يدعونا إلى اليأس. ولن يستطيع المعلم بسهولة أن يصلح ما أفسدته سنوات طويلة تعرض فيها الطفل لتربية خاطئة وبيئة اجتماعية فاسدة. وكل ما نرجوه أن يجد بعض التلاميذ ما يعينهم على تكوين اتجاه سليم نحو الجنس وإعدادهم لحياة جنسية راضية.

### عشق الجنس:

ولما كان الاستمناء ظاهرة شيع وجودها بين المراهقين الذكور إلى درجة تجعلنا نعتبرها ظاهرة عادية من ظواهر النمو، وجب ألا يكرس لها المعلم من اهتمامه إلا قدرأ يسيراً. غير أن مثل هذا القول لا يمكن أن يقال عن عشق الجنس. فإن هذه الحالة الأخيرة انحراف حقيقي، ولاشك في وجود بعض حالاته في مدارسنا. وعندما نعبر عن حالات عشق الجنس بأنها حالات انحراف فإننا نقصد به بصفة أساسية ذلك الاتصال الجسماني بالفعل، أما التعلق الوجداني بين فرد وفرد آخر من نفس جنسه فهو أمر عادي تماماً وخاصة قبل المراهقة. وزيادة على ذلك فيجب علينا ألا نحمل كلمة «انحراف» التي استخدمناها هنا على محمل الحكم الأخلاقي. إن الدراسة العميقة لعمل الغدد الصماء والكيفية التي تؤدي بها عقولنا وظائفها تحتم علينا أن نصنع الشفقة في النظر إلى أولئك الذين لا يجدون الإشباع الكافي عن طريق السلوك العادي القائم على الجنسية الغيرية - نتيجة لتراث عقلي أو بدني، أو لما مرّ بهم في هذه الناحية أو تلك - وهم لهذا يؤثرون أن يهبوا حبهم رقيقاً من جنسهم. وسواء عاملتهم بالحسنى أم لم تعاملهم بها فهذا انحراف لاشك فيه. ورغم أنه ليس في وسعنا أن ننكر وجود فترات من التاريخ كان يعتبر فيها عشق الجنس أمراً محموداً، أو أن جانباً من خير الإنتاج الفني في مجتمعنا إنما أبدعه عشاق الجنس؛ فإننا لا نستطيع أن ننكر من ناحية أخرى أن معظم الناس في معظم العصور كانوا يفضلون الجنسية الغيرية أيما تفضيل.

والناس عندما يفضلون البنين عن البنات في المدارس ثلاثة أرباع العام إنما يضعون البذرة لقدر عظيم من المشاكل في تلك الناحية. وقد وصف بعضهم السجون التي يرمى منها أن تكون للتأديب والإصلاح بأنها «أديرة يسكنها أفراد لا يرغبون أية رغبة في أن يكونوا كالرهبان عفة وزهداً»، ويمكننا أن نطلق نفس الوصف على المدارس الداخلية. وعندما نكون بصدد الكلام عن

المدارس الخارجية، نجد أن حياة الأسرة العادية وما تسمح به من اتصال أفرادها بأفراد الأسر الأخرى يمنع تطور المشكلة على النحو السابق. ولكن حتى في هذه الحالة الأخيرة ليس من النادر أن تصادف حالات ينطبق عليها وصف المربي إدوارد كارينتر: ينظر الولد الصغير إلى الكبير كبطل يهوى صحبته، ويستخفه الطرب لسماع كلمات الحنان تخرج من بين شفثيه. ثم يحدث أحياناً أن تبدأ بين الاثنين علاقة جسدية.

والاقتصار على معاقبة التلاميذ في تلك الأحوال ليس حلاً للمشكلة - أما العقوبات البدنية فقد تزيد الطين بلة.. وكثيراً ما تكون المحادثة الودية خير عون في هذه الظروف، ويمكن تدعيم هذا العلاج باتخاذ التدابير لفصل كل من الطرفين عن الآخر على قدر الإمكان. وقد يتبين المعلم أحياناً أن الحكمة تتطلب الاستعانة بالطبيب النفساني، كما قد يجد من الضروري أن يستبعد طفلاً معيناً - رغم يقينه بالحاجة إلى تربيته من جديد - حتى يحول دون تدنيس الآخرين. ولكن ينبغي علينا - رغم ما قد نلجأ إليه من التدابير الحازمة كما في هذه الحالة - ألا نتسرع وننتهم الطفل من الناحية الخلقية.

### التدله وعبادة الأبطال

إن تعبير «الجنسية المثلية أو عشق الجنس» تعبير مطاط يتضمن في إحدى نواحيه تلك المظاهر الإجرامية في جوهرها كما يمتد في أغلب الأحيان من الناحية الأخرى حتى يشمل ما نسميه بألوان التدله أو الهيام التي قل أن تخلو منها مدارس البنات. وقد تنشأ هذه العلاقة بين تلميذتين كنتيجة لظرف عابر بسيط، ربما عند تقابلهما في اليوم الدراسي الأول «كتلميذات مستجدات» ولكنها غالباً ما تتفاقم بدرجة ملحوظة. فعندما تتجول البنات وقد طوقت كل منهن خصر زميلتها بذراعيها فإنهن يعتقدن اعتقاداً جازماً بأن ما بينهن من صداقة سوف يدوم إلى الأبد - وهو اعتقاد راسخ لا يضعفه ما قد يقوم بينهن من المشاحنات والمصالحات.

وقد تدل هذه الألوان من الوله في بعض الأحيان على حاجة البنت إلى الإشباع الوجداني، وعلى وجه الخصوص الإشباع الوجداني من ناحية الأم، وقد تؤثر تلك الحاجة في عملها المدرسي تأثيراً سيئاً، ولكن يبدو أن تلك المشاعر، رغم أن أصلها الانفعال يعود إلى الجنسية المثلية، لا تحدث من الضرر إلا أقله أو لا تحدث أي ضرر دائم على الإطلاق. إلا أنها رغم ذلك، قد تستوجب جزع المربي عندما تتطور إلى مداعبات حب واضحة واشتراك في العادات السرية. وفي هذه الحالة تتشابه النتائج التي تترتب على هذا التطور مع نتائج الاستمئاء الفردي ونتائج الجنسية المثلية الجسدية عند الصبيان ونتائج العناق والمداعبة، ويمكن أن يستخدم في تلك الأحوال ما أشرنا به من قبل خاصاً بهذه النواحي.

وقد يكون تدله البنات نحو معلمتها أبعد خطراً في آثاره الانفعالية. إذ يجعلها تتفانى في صنع الهدايا لها، كما تغمرها الحماسة إذا تهيأت لها الفرصة لأداء أية خدمة لها مهما كانت طفيفة كإحضار حقيبة يدها أو مظلتها، كما تشكل البنات أنفسها حسب بديل أمها وهي المعلمة في سائر الأمور الصغيرة، فإذا كانت المعلمة سامية الخلق فقد يكون هذا التقليد مفيداً للبنات. غير أن البنات الصغيرة التي لم تنضج عندها القدرة على التمييز والتفريق بين الصالح والطالح قد تنقل عن معلمتها أيضاً بعض الصفات الوضيعة غير المستحبة.

ويجمل بنا ألا نغفل حقيقة على جانب كبير من الأهمية، وهي أن المعلمة المحرومة من نعمة الزواج وإنجاب الذرية تشتق قدراً عظيماً من الإشباع من مثل هذه العلاقة وإن تم ذلك بطريقة لا شعورية. وما لم تعالج المعلمة تلك العلاقة بحكمة فإن ذلك التدله قد يترك أثراً دائماً في شخصيات البنات ويعوق نموهن السليم من الناحية الانفعالية. والمعلمة التي يقال عنها إنها معلمة عجيبة يفتتن البنات بها فتوناً جارفاً ينبغي عليها أن تتحفظ في علاقتها بتلميذاتها. أما في مدارس البنين فيمكن أن تراعى مثل هذه المبادئ وإن كانت الأمور لا تصل إلى هذا الحد من الخطورة إلا فيما ندر.

### المدارس المختلطة:

جرت العادة على معارضة التعليم المختلط على أساس أنه يفتح السبيل إلى خلق سائر أنواع المشكلات الجنسية. وكانت تساق المعارضة لهذا النوع من التعليم في معرض التهويل حتى لتطبع النفوس بفكرة أن مدارس التعليم المختلط مفعمة بالإثم والخطيئة. غير أن هذا الاعتراض مردود عليه من الناحية النظرية كما يدحضه واقع الأمور.

ومن الطبيعي أن ينبني رأى الواحد منا على أساس ما يعتقد أن اسم «المشكلة الجنسية» ينطوى عليه فإذا كان يدخل في هذا صداقة البنين والبنات في فترة المراهقة فليس من شك أن هناك مشاكل جنسية حسب وجهة نظره. ونحن من جانبنا لا ننكر احتمال نشوء علاقات غرامية بين التلاميذ والتلميذات في أية مدرسة مختلطة، ولكنها لا تؤدي عادة إلى مشاكل خطيرة إذا كانت في حدودها العادية وما لم تؤد الأنظمة المدرسية الفاسدة إلى تطورها.

كما لا ننكر احتمال حدوث بعض حالات نادرة لعلاقات جنسية يتمادى فيها أصحابها بحيث تتطور في النهاية إلى مشكلة حقيقية. غير أن هذا الاحتمال لا ينهض دليلاً ضد التعليم المختلط، إذ يحدث نفس الأمر أيضاً بين التلاميذ والتلميذات في المدارس غير المختلطة؛ بينما تخلو المدارس المختلطة من الجنسية المثلية على الأقل. ولا بد في النظر إلى هذه المسألة من التزام جادة الإخلاص والأمانة، فالواقع أنا لو سألنا المعلمين لأكد الكثيرون منهم أن الجنسية المثلية انحراف لا شك فيه وهو لذلك أخطأ أخلاقياً من الجنسية الغيرية، ورغم ذلك فهم يفضلون -

إذا تحتم وجود حالة من هذا القبيل - أن تكون حالة جنسية مثلية بين تلميذين فى المدرسة بدلا من أن تكون حالة علاقة جنسية بين ولد و بنت. والواقع أن ما يدعوهم إلى ذلك الاتجاه هو ما قد تتمخض عنه هذه العلاقة الأخيرة من نتائج لا يحمدها المجتمع الخارجى. فإذا كان هدفنا المباشر أن نوفر للمدرسة «سمعة طيبة» كان للتعليم المختلط مساوئه التى لا تنكر، أما إذا كان أهم أهدافنا منصباً على معاونة التلاميذ على النمو من الناحيتين الانفعالية والاجتماعية نمواً سليماً فإن التعليم المختلط يوفر من الإمكانيات ما يعوض وجود هذه المشاكل.

وعندما يجتمع البنون والبنات فى حجرة الدراسة يدركون أن كلا من الجنسين يشبه الجنس الآخر فى العمليات العقلية إلى حد كبير، أن الذكور لا ينفردون بمواهب فذة تجعلهم ينفردون «بمنطق الرجل السليم» على حين أن الإناث يستعوضون عن تلك المواهب «ببصيرة النساء الثاقبة». وهذا الإدراك فى حد ذاته درس هام جداً لأن قدراً عظيماً من الاضطراب فى العلاقات الجنسية بين أفراد مجتمعنا إنما يرجع فى أساسه إلى مثل هذه المعتقدات الخاطئة. وعندما يشترك أفراد الجنسين معا فى السباحة والتجول والإقامة فى المعسكرات، وفى دروس الموسيقى والتمثيل والمناظرات فإنهم يتعلمون كيف يفهم كل منهما الآخر من الناحية الجسمية والانفعالية. وعندما يساهمون فى إعداد المائدة لتناول الطعام فى المدرسة، أو أدوات اللعب فإنهم يشبّون وقد راودتهم الفكرة بأن النساء لا يختلفن كثيراً عن الرجال من حيث الطاقة والوظائف الاجتماعية. يتحقق ذلك إذا كانت المدرسة مدرسة مختلطة حقيقية وليست من الطراز الذى وصفته إحدى التلميذات فيما مضى بقولها: «كان التعاون الوحيد الذى بيننا وبين البنين هو المناظرة السنوية، عندما كان يجلس الأولاد فى جانب من القاعة بينما يجلس البنات على الجانب الآخر. وكان هذا التصرف يقابل بعدم الاكتراف فى الفصول الصغرى، بينما كان يقابل بالدهاء والتحايل فى الفصول الوسطى، وبالعصيان الصريح فى الفصول الكبرى».

يقابل ذلك ما كتبه إحدى ناظرات المدارس المختلطة حيث كانت الأحوال على نقيض ذلك قالت: «كان سائر التلاميذ - بنين وبنات - يختلطون بحرية فى فترات الألعاب الرياضية وقد ارتدى كل فرد من الجنسين ملابس الألعاب، بحضور المدرسين والمدرسات، فلم تكن تنشأ صعوبة ما.. وكان تلاميذ المدرسة وتلميذاتها يعملون فيما بعد فى المصانع المختلطة، وكان الزواج يحدث فى سن مبكرة، حوالى العشرين، ولكنه لم يكن يحدث بسبب الحمل. وقد تحدثت فى ذلك إلى إحدى التلميذات السابقات - وهى الآن زوجة - فقالت لى: حقاً، لقد نشأنا معاً، أليس كذلك؟ وأعتقد أننا لم نكن نفكر كثيراً فى تلك الأمور».

### الإلهام فى المدرسة:

إن المعلم الذى يعمل جاهداً على أداء واجبه على الوجه الأكمل، والذى يوفق فى اتباع ما تقتضى به أصول التربية الجنسية، والذى يستهدى الحكمة فى معالجة المشاكل الفردية

للسلوك الجنسي يبقى عليه بعد ذلك مواجهة كبرى المشاكل، وهي: كيف يوفر في المدرسة الجو الذي يساعد التلاميذ على امتصاص الحقائق الجنسية بسهولة ويقلل احتمال حدوث المشاكل.

ومما يقوى ميل الأطفال إلى الاستطلاع الجنسي عادة تصميمهم على ألا يسبقهم أقرانهم في الوصول إلى المعلومات. والطفل الذي يشعر أنه دون أقرانه في تلك الناحية يحدث عنده شعور بالنقص. إنه سوف لا يصرح لهم بجهله ولكنه سوف يستخدم كل وسيلة - حتى ولو استدعى الأمر الاطلاع في دوائر المعارف والإنصات بلهفة إلى المحادثات الجنسية وما شاكل ذلك - لكي يسد الثغرة في المعرفة بينه وبينهم. وبالمثل فإن التلميذ الذي ليست لديه رغبة خاصة للاشتراك في حديث «جنسي» أو مشاهدة الصور العارية أو حكاية القصص القذرة أو التماهى في التجارب الجنسية غالباً ما يضطر إلى مجازاة زملائه خوفاً من أن يعيرونه بأنه «غرأبله». إن الجو المدرسي ينبغي أن يكون بحيث يشجع الطفل على أن يلجأ إلى المدرس يسأله الجواب على ما يراود نفسه من استفسارات، وألا يجد نفسه منساقاً إلى الحصول على المعلومات الجنسية لكي ينافس غيره، وأن يستطيع إذا دعاه داعي السوء من رفاقه رفض الدعوة في حزم واحتقار.

لقد بدأت كلامي في هذا الفصل بالإشارة إلى الجو المدرسي، وسوف أختمه بنفس الأمر. إننا في سبيل المحافظة على الجو المدرسي ينبغي أن نسأل أنفسنا: هل هناك ثقة كاملة متبادلة بين التلاميذ ومدرسيهم؟ وهل تظلم السعادة في المدرسة؟ وهل يصير التلاميذ في حزم على عدم إتيان الفاحشة ويشعرون أنهم أنداد للتغلب على همسات النفس الأمارة بالسوء؟ وهل قلت متاعب المراهقين النفسية بينما تكونت عندهم صداقة مثمرة؟ هنا مفتاح الحل الموفق لمشكلة التربية الجنسية في المدرسة. فبدون جو سليم، لن يجدى كل تعليم الدنيا بأجمعه ولن يؤدي إلى فتح مغاليق الحياة السعيدة، أما إذا توفر هذا المفتاح - هذا الجو المدرسي السليم - فمن الممكن حينئذ فتح الباب على مصراعيه ليقبل التلاميذ على عالم جرىء جديد.